المبحث الأول

آراء المدرسة العقلانية الحديثة في الدين ونشأته والتوحيد عبر التاريخ البشري

تذهب أكثر الاتجاهات العقلانية والفكرية الحديثة في العالم الإسلامي في نشأة الدين وعقيدة التوحيد، وتاريخهما في الحياة الإنسانية الغابرة، مذاهب شتىٰ ـ أكثرها ينافي ما جاء صريحًا في القرآن الكريم ـ متابعة للنظريات الغربية التي ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، حول مفهوم الدين والتدين وتاريخ الأديان، وخلاصة ما تذهب إليه هذه **الاتجاهات**[1]:

* أن الإنسان في الأرض بدأ حياته همجيّاً ساذجًا بدائيّاً، في تدينه وفكره وعقله وعيشه، ومن ثم فهو لم يعرف التدين إلا بعد أحقاب طويلة من حياته.

* ثم تطور عقله وفكره، مع تطور معيشته، حتىٰ تولدت عنده فكرة التدين دون تمييز واضح أو تعليم خارجي إنما شعر بحاجة ذاتية للتدين.

* ثم بدأ الإنسان في التدين وثنيّاً يعبد ما حوله، من قوىٰ طبيعية وأرواح، ورموز، بدافع الخوف والرجاء، والرهبة والرغبة، أو الشعور بالعظمة، أو النفع والضرر، لشيء من الأشياء التي من حوله كالجبال والأشجار والأحجار والنجوم والشمس والقمر وأرواح الموتىٰ والأسلاف والطوطم وغير ذلك.

---

(١) تراجع الكتب **التالية**:

(١) كتاب (الله) للعقاد من ص١٣ إلىٰ ٢٨.

(٢) كتاب (الله) لمصطفىٰ محمود من ص ٦١ إلىٰ ٦٤.

(٣) نشأة الدين والنظريات التطورية والمؤلهة ـ علي سامي النشار ص٤٠ إلىٰ ٤٣، ومن ٦١ إلىٰ ٧٣.

(٤) العقيدة الإسلامية والأيدلوجيات المعاصرة ـ د. عبدالغني عبود ص٤٩.

(٥) الدين لعبدالله دراز.

(٦) الإنسان في ظل الأديان، لعمارة نجيب.

بعد ذلك تطور وتدرج في التدين من الوثنية الخالصة إلى التمييز والترجيح بين المعبودات، فالثنائية أو المعبود الواحد لكل أمة أو قبيلة، إلى أن توصل إلى الاستعداد للإيمان باله واحد، أي: أن الإنسان جاء إلى هذه الأرض لا يعرف الله ثم اكتشفه بمحاولات عقله، عقب تجارب ومراحل زمنية طويلة.

وتعتبر هذه الاتجاهات الدينَ ظاهرة إنسانية، كسائر الظواهر الاجتماعية وتقاليد البشرية للأمم. وهذا دليل تخبطهم وتخرصاتهم، وجهلهم أوتجاهلهم كما أنزله الله تعالى من الحق والهدى، الوحي الذين بَيَّنَ الله فيه الحق في ذلك، وأن الله تعالى خلق الناس على الدين وفطرهم على التوحيد، ولما انحرفوا عن التوحيد والدين الحق، أرسل الله إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب منذ نشأة البشرية وفي كل زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

ويبدو لي: أن من أكثر العقلانيين المحدثين تطرفًا في هذا الجانب، الأستاذ عباس محمود العقاد.. فهو يرى: أن الأمم القديمة لم تكن تعرف الإيمان بإله واحد لا إله غيره إلا ما كان من المصريين، بعد زمن طويل من تاريخ الإنسانية، في عهد أخناتون، وإن كانت البشرية عرفت الإله الواحد فلم تعرف التوحيد، إنما عرفت أنه خلق الأحياء وخلق معهم أربابًا آخرين..[1] بل لقد قال بالحرف الواحد بأن من يريد أن «يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن السخف والغباء، إنما يبحث عن محال»..[2] ويقول: «أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها في غير السلالة العربية»[3]!

هكذا يرى الأستاذ عباس العقاد، إذ أنه يعتقد ـ كما صرح في كتابه إبراهيم

(١) انظر كتاب العقاد ـ إبراهيم أبو الأنبياء ـ ص٥٠٢ المجلد الخامس من موسوعة العقاد الإسلامية ـ الطبعة الأولى.

(٢) الله ـ للعقاد ص١٤.

(٣) إبراهيم أبو الأنبياء ـ للعقاد ٤٨٢.

أبو الأنبياء ـ أن الدعوات النبوية بدأتها دعوة إبراهيم[١]! . . أما قبل ذلك فلا وجود لها . لكن ماذا يقول هذا المخذول وأمثاله في نبوة آدم ونوح وإدريس التي صحت في القرآن والسنة؟!

ويذهب مصطفىٰ محمود إلىٰ أنه «بدأ الحال بالناس أمة واحدة علىٰ الجهل والمادية والكفر . . .»[٢] .

ويبدو ـ كما أسلفت ـ أن هذه الاتجاهات الحديثة ـ تبعًا للغربيين ـ تتجاهل أو تجهل ما جاء عن الوحي والرسالات والنبوات، التي جاء تفصيلها في الكتب المنزلة من الله، وفصَّلها القرآن الكريم، كما سيأتي إن شاء الله .

وحين مناقشة هذه الآراء نجد لأول وهلة : أنها تخمينية لا تستند إلىٰ أدلة علمية ولا عقلية، ولا تثبت أمام البحث العلمي .

ذلك أن الاستدلال علىٰ تاريخ العقيدة والأديان، لا يخضع للاستقراء والاستنتاج العقلي المجرد، ولا للتجارب المادية العلمية، إنما طريقه ما ينقل لنا من أحوال تلك الأمم، وذلك قد جاءنا من طريقين كل منهما يصدق الآخر، ودلالاتهما قطعية .

فأحد هذين الطريقين : الوحي المنزل من الله تعالىٰ في الكتب السماوية التي قَصَّت علينا أخبار تلك الأمم وأحوالها، لا سيما من جانب العقيدة والدين، وأقرب هذه الكتب وأسلمها : القرآن الكريم، فهو أصدق وثيقة يستدل بها، بإجماع المسلمين، ومنهم رواد العقلية الحديثة أنفسهم، ثم ما صح عن رسول الله ﷺ .

أما الطريق الثاني فهو : الآثار التي يتم اكتشافها تحت الأرض من بقايا تلك الأمم، وسيأتي الكلام عنها .

وأظن أن رواد العقلية الحديثة لا يمارون في صحة ما جاء في القرآن، فهم

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ـ للعقاد ٥٠٨ .

(٢) محمد عليه السلام ـ لمصطفىٰ محمود ص٧ .

يدَّعُون ذلك . . . وعلىٰ هذا يجب التسليم له وتصديق ما جاء فيه، فالقرآن الكريم أثبت بأسلوب قطعي بيِّن لا غموض فيه، بأن البشرية من أول عهدها، وعلىٰ امتداد التاريخ كله، عرفت عقيدة التوحيد، والإيمان بالله لا إله غيره، نقية صافية منزهة من السخف والغباء، وأنها بدأت حياتها في هذه الأرض مفطورة علىٰ الفطرة السليمة، تعبد الله وحده لا إله غيره، ثم تدرجت بالشبهات والشهوات والجهل إلىٰ الشرك والوثنية، فأرسل الله إليها الرسل بأن تعبد الله وحده لا شريك له، وأن تترك الأوثان والمعبودات من دون الله، فمنهم من استجاب ومنهم من حقت عليه الضلالة . . وأن تاريخ الإنسانية كله مليء بالصراع بين الحق والباطل، أي بين عقيدة التوحيدة وعبادة الله وحده لا إله غيره، وبين الشرك وعبادة الأوثان. والآيات التي وردت في ذلك كثيرة، أذكر منها:

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾[١] . .

وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٢] . .

وقال: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[٣] . .

وقال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾[٤] .

وقال تعالىٰ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا

(١) الآية ٣٦ ـ النحل.

(٢) الآية ٢٤ ـ فاطر.

(٣) الآية ٧٥ ـ القصص.

(٤) الآية ٤١ ـ النساء.

جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[٢] ، وقال : ﴿ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[٣] . . وقال : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[٤] . . وصح عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال : «... **وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم...**»[٥] .

إذن : فَلِمَ يذهب العقلانيون المحدثون للبحث عن هذه الحقيقة في متاهات النظريات الغربية؟ وهذا القرآن بين أيديهم يهديهم إليها بيسر لا عناء فيه ، ووضوح لا خفاء فيه ، ويقين لا شك فيه ، يصدقه الواقع ويؤيده العلم ، فالله يقص علينا في كتابه الكريم أنه كَرَّمَ بني آدم واستخلفهم في الأرض وأرسل إليهم الرسل ـ لكل أمة منهم ، وأحيانًا لكل قرية ـ يهدونهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن الله يبعث من في القبور ، ويجازي علىٰ العمل يوم القيامة ، ويرشدونهم إلىٰ طريق الفلاح والهدىٰ في الدارين ، أطاعهم البعض وعصاهم آخرون ، وقام الصراع بين أنصار الله وأنصار الباطل ، حتىٰ يقضي الله بينهم بالحق ، وأن البشرية تعي هذا جيداً كلها وستحاسب عنه يوم القيامة ، وتقوم عليها الحجج ، وأن الله سيُشهد أمة محمد ﷺ علىٰ الأمم كلها بأن الله بعث إليها من يعلمها ؛ أن الله لا إله غيره هو وحده المستحق للعبادة ، ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٦] ، وأن ذلك بدأ مع بداية حياة البشرية .

---

(١) الآية ٢١٣ ـ البقرة .

(٢) الآية ٤٧ ـ يونس .

(٣) الآية ٨٠ ـ آل عمران .

(٤) الآية ٧ ـ الرعد .

(٥) من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٨٦٥) .

(٦) الآية ١٤٣ ـ البقرة .

وقد قص الله في القرآن لنا قصص بعض هذه الأمم، بما لا يدع مجالاً للشك في أن الإنسان من أول عهده بالأرض عرف الدين الحق: التوحيد، والإيمان بالله، وعبادته وحده لا شريك له، فقال عن نوح وقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[١]..

وأنهم عصوه فأهلكوا بالطوفان، ولم ينته الأمر عند هذا الحد؛ فَقَالَ تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[٢]. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾[٣]..

وهكذا يتضح من خلال هذه الآيات: أن رسالات الله مسلسلة متواصلة دون انقطاع.

فتعويل هؤلاء الكتاب العقلانيين المحدثين علىٰ الدراسات الغربية، مع أن للإسلام قوله الفصل في هذه المسألة، وتجاهل ما ثبت عن الله تعالىٰ، ضلال وانحراف.

وأخذ رأي الغربيين في هذا الصدد أيضًا دون مناقشة ولا تمحيص تَسَاهُل وتقليد أعمىٰ؛ لأن الدراسات الغربية تستبعد من حسابها الوحي الإلهي والتوحيد والأديان، وإن اعترفت بالأديان فإنما تعني بذلك الأديان الوثنية، كالبوذية أو شبه الوثنية كاليهودية والنصرانية الحالية المُحَرَّفَة. فأقرب النظريات الغربية للصواب؛ إنما تجعل تاريخ الوثنية هو نفسه تاريخ التدين والتوحيد، إذْ هي لا تعرف التوحيد إلا مشوبًا بالشرك، فكيف بالنظريات الأخرىٰ، التي تستبعد الأديان السماوية

(١) الآية ٥٩ الأعراف.

(٢) الآيتان ٣١، ٣٢ المؤمنون.

(٣) الآيات ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ المؤمنون

أصلاً، وهي غالب النظريات الغربية التي تُعَوِّل عليها المدرسة العقلية الحديثة في دراساتها؟!

ومن الجدير بالذكر أن أحدث الدراسات الغربية، وأقواها علميّاً، والتي اشتهرت وسادت خلال هذا القرن ـ العشرين الميلادي ـ اضطرت الباحثين ـ أمام الآثار والكشوفات العلمية الحديثة ـ إلى القول بأن الإنسان عرف الله الواحد، وعبده أولاً، وقبل كل شيء، فأقدم الآثار دلت على ذلك. . لذلك رجح كثير من علماء الغرب نظرية التَّألِيْه، وهي أن الإنسان عرف الله وعبده أولاً ثم انحرف إلى الشرك وتعدد المعبودات و «أن التوحيد هو منشأ الأديان، وليس هو نهاية التطور الديني»[١]. . يقول الدكتور عبدالله دراز في كتابه (الدين) بعد أن ذكر نظرية التَطَوُّر في الدين وخطأ القائلين بها: «وفريق آخر يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب، ويثبت بالعكس أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر، مستدلاً بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث، فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالية الخالدة»[٢]. .

ثم ذكر أن هذه النظرية هي التي انتصر لها علماء الأجناس وعلماء النفس وعلماء الإنسان مثل (لانج) الذي أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل في استراليا وأفريقيا وأمريكا، كذلك أثبت غيره من العلماء والباحثين مثل (شريدر، وبروكلمان، ولرواه، وكاترفاج، وشميدث)[٣]. .

وهكذا قامت عندهم الأدلة العلمية على أصالة التوحيد، بينما بقيت النظريات الوثنية وهمية دون سند علمي إلا الأهواء والتخرصات والقول على الله بغير علم.

---

(١) نشأة الدين ـ علي سامي النشار ص٢٠٦.

(٢) الدين ـ للدكتور عبدالله دراز ص١٠٧.

(٣) انظر: الدين، للدكتور عبدالله دراز ص١٠٧.

وإذا كان الكتاب العقلانيون المحدثون يتشبثون بالعلمية ومواكبة أحدث الاكتشافات والنظريات العلمية، فلماذا نراهم في هذه المسألة لا يزالون يتعلقون بنظريات القرن الثامن عشر والتاسع عشر، التي تزعم أن الإنسان بدأ حياته وثنيّاً مع أنها في القرن العشرين أصبحت في الغرب نفسه مرفوضة علمياً عند محققيهم، كما ذكر آنفًا؟

وأخيرًا: تبين لنا من خلال آيات القرآن الصريحة، ومن خلال الكشوف العلمية والآثار والتحقيق العلمي الرصين، أن الله حين خلق بني الإنسان لم يتركهم هملاً، بل فطرهم على التوحيد والسلامة من الانحراف والشرك حنفاء لله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]. . ثم اجتالتهم الشياطين عبر الشبهات والشهوات والجهل حتى

أشركوا مع الله غيره من سائر المعبودات، فبعث النبيين مبشرين ومنذرين وداعين إلى عبادة الله وحده، فلا داعي بعد هذا للتخبط والأوهام والتيه في متاهات التاريخ المجهول بغير برهان ولا دليل.

أما ما ذهب إليه العقاد من إنكار النبوات قبل نبوة إبراهيم عليه السلام، وأن النبوات كانت في العرب فحسب. . فسيأتي في فصل النبوات إن شاء الله.

*****

(١) الآية ٣٠ الروم.

المبحث الثاني
مزاعم المدرسة العقلية الحديثة
في عقيدة الإيمان بالغيب

وفي هذا الفصل سأناقش مسألة الإيمان بالغيب في عمومها، وهو الإيمان بكل ما ورد عن الله في كتابه (القرآن الكريم)، وما ورد وثبت عن رسول الله ﷺ، من الإخبار عن أمور غيبية لا يدركها الإنسان بحواسه، ولا يستنبطها بفكره وعقله المجرد، أما تفصيلات الأشياء الغيبية كالملائكة والجن، والجنة والنار، وغيرها من المخلوقات والموجودات التي أخبر عنها الله ورسوله، فسيأتي الكلام عنها مفصلة في مباحث مستقلة.

ومسألة الإيمان بالغيب، والاعتقاد بوجود مخلوقات وأشياء غائبة عن مداركنا، كلها أمور لا تخضع للتجربة والمشاهدة، والإدراك البشري، فهي من أعقد المشكلات التي واجهت العقلية المادية الغربية ومن يدور في فلكها اليوم، ومن ثم شاعت تلك الدعوىٰ المزعومة بأن الغيبيات التي تتحدث عنها الديانات السماوية إنما هي وهم لا دليل عليه ولا سند له، وزعم الملحدون أن العلم ينفي أو يكذب هذه الأشياء أو لا يثبتها. وهذه فرية كبرىٰ وبهتان عظيم علىٰ العلم، فالعلم لا يملك نفي مالم يدركه الإنسان، وكذلك العقل.

وقد تأثرت طوائف من المفكرين والمثقفين وجمهرة من الشباب في العالم الإسلامي بهذه الدعوىٰ، وأخذوا يرددونها بين المسلمين، كالببغاوات.. فقالوا بأن العصر لم يعد عصر الذين يؤمنون بالغيب، إنما هو عصر التقدم والعلم الذي لا يؤمن إلا بالتجربة والمشاهدة ومن ثم زعموا بأن العلم والغيب ضدان، وأن العلم أثبت أن الغيب خرافة. وهم بهذا بهتوا العلم، وظلموا العقل، حين نسبوا

جهلهم وتخبطاتهم وإلحادهم إليهما.

وقد أصابت العالم الإسلامي في مطلع القرن العشرين ـ الميلادي ـ موجة عاصفة من التشكيك، والتكذيب بأمور الغيب، التي يرتكز عليها الإسلام، انهزم أمامها علماءُ مسلمون، أو محسوبون على الإسلام وعلى الدراسات الإسلامية، وصاروا فيما بعد من رواد المدرسة العقلية الحديثة التي ساهمت في زعزعة عقيدة بعض المسلمين من الداخل، وستأتي أسماء بعض هؤلاء عند الكلام على كل مسألة من مسائل الإيمان بالغيب.

المهم: أن قضية إنكار الغيب، أو التشكيك فيه، أو تأويله، أصبحت الآن من القضايا الملحة عند بعض المسلمين، حيث اصطبغت بها أفكارهم وثقافاتهم، وغرست في أفكار وعقول بعض الجيل الحاضر، نتيجة الجهود التي بذلها كتاب ومثقفون ومفكرون وأدباء من أبناء جلدتنا حين تأثروا بهذه النزعة الإلحادية وبثوها من خلال كتاباتهم، ومقالاتهم، وبحوثهم، وأشعارهم، وسائر مناشطهم وحواراتهم، حتى صارت هذه النزعة الإلحادية سمة وظاهرة قد يعتز بها كثير من مثقفينا. **فحسبنا الله ونعم الوكيل.**

ومع أن هذه الموجة ـ موجة التشكيك والتكذيب بالغيب يحسها الكثير (في عالمنا الإسلامي) في وسائل الحياة اليومية، إلا أنه من المفيد أن أورد بعضًا مما جاء في ذلك، وهو غيض من فيض:

ذكر الشيخ مصطفى صبري في كتابه **(موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين)** أن أحد الأساتذة أعضاء بعثة الجامعة المصرية (سابقًا) في باريس كتب مقالة بعنوان (عدة النجاح لرجل القرن العشرين) جاء فيها:

«وصفوة القول: إن الرجل العصري، يجب أن ينبذ العقلية الغيبية ويطاردها في كل مكان، حتى تستوي له عقلية علمية، من هذا الطراز الذي

نشاهده، في معامل العلماء»[١] . . فتأمل كيف وقع هذا المخذول أسيراً للتقليد الأعمىٰ وظن أن المعاصر ينافي الإيمان بالغيب، وزعم أن العلمية والعقلية ينافيان الغيب.

وقد نالت هذه المقالة الجائزة الأولىٰ في مباراة صحفية أجريت في مصر[٢] . . لذا قد لا يكون غريبًا أن يتفوه ممسوخ بمثل هذا الكلام، إنما نقف طويلاً عند فوز مثل هذه المقالة الملحدة في مباراة صحفية تجرىٰ في بلد مسلم، علىٰ يد موجهين من الذين أجازوا وأقروا ـ بل وأعلوا ـ شأن مثل هذا الكلام.

ويقول زكي مبارك: «سيأتي يوم قريب أو بعيد ـ يثور فيه الناس علىٰ الأمور الغيبية، ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا علىٰ عبقرية محمد»[٣] . . وأقول: إنه إذا لم يبق لنا من ديننا إلا عبقرية محمد ﷺ، فإن العباقرة في العالم كثير، فإذا خسرنا نبوته ورسالته ﷺ، فلا حاجة لنا بعبقرية مجردة من النبوة والرسالة والهداية التي ميّز الله بها نبي هذه الأمة حتىٰ صار بها أفضل العالمين ﷺ، وخصال النبي ﷺ محمودة كلها ترتقي بالنبوة والرسالة، قال تعالىٰ: ﴿**ووجدك ضالا فهدى**﴾.

وقال الدكتور/ كامل عياد: «إن طريقة البحث العلمي جعلتنا لا نتقيد إلا بالواقع الذي تدركه الحواس، وأن نتحرر من العقائد الغيبية»[٤] . . وهو بهذا يزعم أن طريقة البحث العلمي تحرر من العقائد الغيبية، لكنه لا يستطيع أن يثبت لنا كيف حرره العلم من الغيب. وهكذا نجد أن هذه الفئة الضالة توهم القراء والسذج والجهلة أن العلم يحارب العقائد الغيبية وينافيها، نعوذ بالله من هذا

(١) راجع موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين وعباده المرسلين، لمصطفىٰ صبري جـ١ ص١٨٧.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) مجلة الرسالة، العدد الخاص بأول العام الهجري ١٣٥٣.

(٤) العالم العربي للدكتور/ كامل عياد ١٦٤ـ نقلاً عن مشكلات الجيل في ضوء الإسلام، لمحمد المجذوب ص٢٥.

الوسواس الخناس.

ويطلق الدكتور حسن صعب على العصور الإسلامية: «عصر الغيبية والتجريد» والعصر الحديث «عصر الإيجابية والعلمية»[١] فهل بذلك يعني أن عصور الإسلام عصور سلبية وجهل؟ (معاذ الله) وهل نسي هذا الجاهل أن ما أسماه عصر الغيبية كان هو عصر العزة والازدهار العلمي والحضاري في تاريخ الإسلام والبشرية جمعاء.

ويقول الدكتور أحمد زكي أبو شادي: «والدين الإسلامي يتميز بأنه يدعو إلى المعرفة بالبحث والتحقيق التجريبي، ولا يطلب الإيمان بدون اقتناع ولا يفترض الاقتناع بغير برهان، فهو يختلف عن الأديان الأخرى، وإن تفرع عن بعضها، أو على الأصح استوعبه، يختلف من حيث إنه لا يتعرف الحقيقة بالغيبيات أو من وجهة مختلفة لوجهة العلم أو على مدركات مخالفة لتلك التي تؤلف مادة العلم الطبيعي»[٢]. وهكذا يحلو للكاتب أن يجرد الإسلام من الغيبيات من أجل أن يتفق مع العلم، كما يزعم، وكأن العلم عدو الغيب، وهذا الإيحاء الإلحادي يؤثر على القارئ الذي لا يفقه في دينه، ولم يتعلم العقيدة الصافية.

ويرى كثيرون أن أهم أسباب التخلف في العالم الإسلامي هو الإيمان بالغيبيات، وأنه من أراد التحرر والتقدم فلا بد له من «تحويل المجتمع من الإيمان المطلق بالغيبيات»[٣]. ولو قالوا عكس ذلك لأصابوا، فإن أعظم أسباب الوهن والتخلف بين المسلمين إنما هو من إخلالهم بعقيدة الإيمان بالغيب وأولها أركان الإيمان الستة ومستلزماتها.

---

(١) راجع الإسلام وتحديات العصر، للدكتور/ حسن صعب ص٦٦.

(٢) عن ثورة الإسلام للدكتور/ أحمد زكي أبو شادي ص٧٢، ٧٣.

(٣) هذه العبارة وردت عن بعض المفكرين في ندوة الشهر التي نقلتها مجلة (الكاتب) المصرية ص٤ إلى ٢٩ من عدد ٤٦ يناير ١٩٦٥م. وكانت هذه الندوة مليئة بهذه العبارات ونحوها.

وأمام ضغط موجات الإنكار والتشكيك والتهكم بالإيمان والمؤمنين بالغيب انهزم كثير من المفكرين وأنصاف العلماء، فوقعوا في إنكار بعض الأخبار والنصوص الصحيحة، أو عمدوا إلى تأويلها تأويلاً يبعدها عن ظاهر النص فوصفوا بعض القضايا الغيبية برموز وأوصاف هي إلى الإنكار أقرب منها إلى الإثبات، **أمثال الشيخ محمد عبده، والدكتور محمد حسين هيكل، والدكتور أحمد أمين، والشيخ/محمد فريد وجدي، والشيخ شلتوت، والدكتور محمد البهي وغيرهم، وسيأتي ذكر آرائهم في مواضعها من هذا البحث، إن شاء الله.**

ناهيك بالدكتور طه حسين وزملائه وتلاميذه؛ لأنهم من صنائع المستشرقين، والمستعمرين، والذين يدورون في فلك الغرب، ولا يملكون لأنفسهم عقيدة ولا مذهبًا إلا الهدم، والتشكيك والتبعية، وسيأتي استعراض أقوالهم من الرواد الأصليين للاتجاهات العقلية الحديثة (أو الفرق والمذاهب الضالة) بالمفهوم السلفي الأصيل.

المهم: أنه باسم العلم، والعلمية، والمنهج العلمي، تطاول العابثون والمنهزمون بقصد وبغير قصد، على العقيدة الإسلامية، خاصة الإيمان بالغيب، فَحرَّفوا ورَدُّوا صريح القرآن أو صحيح السنة، حتى زعم بعض العلماء المنسوبين للأزهر والدراسات الشرعية، أن السنة لا يحتج بها في العقيدة وإن صحت. وسيأتي ذكر القائلين بهذا الرأي من العلماء وغيرهم في (رأي المدرسة العقلية الحديثة في السنة وحجيتها من هذا البحث).

وباسم العلمية والمنهجية، نُزِعَتْ أو أضعفت مسائل الدين والإيمان بالغيب من مناهج التربية والتعليم والتوجيه، في بعض البلاد الإسلامية، بل استهدفت للنقد والهجوم والسخرية من رواد العقلية الحديثة، الذين تولوا بعض مقاليد الأمور في كثير من بلاد المسلمين، فنشأت أجيال لا تعرف عن العقيدة، إلا التشكيك أو أنها خرافات وأساطير من بقايا ومخلفات العصور المظلمة.

والآن: فلنناقش هؤلاء الذين يزعمون أنهم مسلمون وتهمهم قضايا المسلمين والإسلام ثم هم يشككون ويؤولون وينكرون أحيانًا بعض المسائل الغيبية، التي وردت في النصوص الصريحة الصحيحة عن الله ورسوله، نناقشهم على ضوء النصوص أولاً، ثم على ضوء العلم والعقل الذي يتحاكمون إليه ثانيا، ويزعمون أنه يثبت أو ينفي أو يقرر بهذا الصدد، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وذلك على النحو التالي:

أولاً: الإسلام لا يقوم إلا على الإيمان بالغيب، ولا يتحقق إسلام المسلم إلا به فأركان الإيمان وأصوله، إنما هي غيب، فالإيمان بالله غيب، والإيمان بالملائكة غيب، والإيمان بالكتب والرسل غيب، ولا تحقق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، إلا بالتسليم والإيمان بالله ورسوله وكتابه وبالإيمان بجبريل واسطة الوحي، وكذا اليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، كل هذه الركائز العظمى ـ التي هي أصول الإيمان والإسلام ـ غيب.

ولا يتم الاهتداء بالقرآن إلا بالإيمان بالغيب ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [١، ٢، ٣ ـ البقرة].

ولا يكون للغيب، والتعبد بالإيمان به معنى، إذا حاولنا أن نتطاول لمعرفته بحواسنا أو عقولنا، وإذا شخَّصنا أو حكمنا به كما نتصور؛ لم يكن غيبًا؛ إن أصبنا الحقيقة، وكنا كاذبين، إن خالفنا الحقيقة التي هو عليها كما أراده الله وأوجده. إذًا فالخوض بالغيب عبث وجهالة، وخروج عن مقتضى الإيمان؛ لأن الله تعالى أخبرنا أنه لن يطلعنا على الغيب: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [١٧٩: آل عمران].

فالتطلع إلى الغيب أو الخوض فيه، كما يفعل رواد العقلية الحديثة، تشكيكًا

وتأويلاً وتحريفًا، إنما هو تطاول على مقام الألوهية ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [٢٠: يونس]، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [٥٩: الأنعام] ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [٦٥: النمل]، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [٢٦، ٢٧: الجن].

ثم إن الله تعالى جعل الإيمان بالغيب امتحانًا وابتلاءً لعباده لحكمة، فإذا أمكنهم معرفته أو الاطلاع عليه دون إذنه تعالى، صار ذلك عبثًا في حقه تعالى، وهو مستحيل ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [٩٤: المائدة]، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [٢٥: الحديد]. لذلك امتدح المؤمنين بالغيب في آيات كثيرة.

ولو كان لأحدٍ من خلق الله الاطلاع أو التطلع لالتماس الغيب، أو القدرة عليه، لكان رسول الله ﷺ أحقهم وأقدره، ومع هذا قال الله يحكي مقالته للكافرين: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [٥٠: الأنعام]، وقال: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [١٨٨: الأعراف] فالنبي ﷺ ـ وهو أفضل الخلق ـ لا يعرف من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه.

ثم إنه تعالى أنكر على الذين يخوضون فيما لا يعلمون من أمور الغيب فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [٤١: الطور] وقال: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ [٣٥: النجم].

ثانيًا: الإيمان بالغيب الذي ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، اهتداء لا يوفق إليه إلا المسلم المذعن لله، والمؤمن بكل ما جاء عن الله ورسوله، كما أن الإيمان بالغيب لا يقوم إلا على التسليم لله تعالى، أما الكافر أيّاً كان اتجاهه، فإنه مغلق القلب والبصيرة، عن الإيمان بالغيب، مهما أوتي من العلم ووسائله وأجهزته، فقد قال الله عن الكفار بأنهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [١٧٩: الأعراف]، ومن هؤلاء الذين وصفهم الله: علماء الغرب ـ غير المسلمين ـ الذين علموا ظاهرًا من الحياة الدنيا بالوسائل العلمية الحديثة.

فسماهم الله ووصفهم بهذه الصفات وهو سبحانه العليم بهم وخالقهم، مع أنهم يعلمون ظاهر الحياة الدنيا ويعقلون حياتهم المعيشية البهيمية، ويسمعون ويبصرون في حياتهم المادية كما نعلم، فهذا يعني أنهم لا يدركون ولا يهتدون إلى الحق، ولا يؤمنون بالغيب، بمجرد مداركهم البهيمية، من قلوب وأعين وآذان مجردة، إذا صرفهم الله تعالى بضلالهم عن الاهتداء بالوحي المنزل من الله.

فإذا كانت حالهم ـ ولا تزال ـ كما أخبر الله عنهم، مع ما يملكونه اليوم من وسائل العلم، وأجهزة الاختراع والإبداع، ودقة الملاحظة والاستنتاج المادي، فما بال بعض المسلمين من المعجبين بهم، يحتجون بهم وبعلمهم وآرائهم في الدين، ويجعلون ذلك ميزانًا يزينون به عقيدتنا وإيماننا، ثم هم تبعًا لهم يزعزعون ثقة الأجيال المسلمة بدينها وعقيدتها، تهكمًا وتشكيكًا وتأويلاً، وإنكارًا في بعض الأحيان؟

ما بالهم يَرُدُّون ما جاء عن الله في كتابه وسنة رسوله؛ لأنه لا يتلاءم مع عقلية الغرب، وعلم الغربيين، أو لأن الغربيين يهزأون بهم حين يؤمنون بالغيب، وحين يؤمنون بالوحي والنبوة والملائكة والبعث والجنة والنار والمعجزات والكرامات؟ فإذا كان الغرب الملحد علم ظاهرًا من الحياة الدنيا، وجهل الدين والإيمان بالغيب، وخسر دينه وآخرته (وإن كسب شيئًا من حطام الدنيا) فما بال هؤلاء المنافقين يلهثون وراءهم؟ إنها ولا شك الانهزامية وضعف الإيمان.

وصدق الله تعالى إذ يقول في وصفهم: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٣٦ إلى ٤١ : يونس] .

ثالثًا: بما أنَّ رواد الاتجاهات العقلية الحديثة في العالم الإسلامي، خاضوا في الغيب أو بعضه، إنكاراً وتشكيكًا وتأويلاً، بحجة أن العلم أو المنهج العلمي، ينفي أو يخالف اعتقاد المسلمين في ذلك، أو أنه لم يثبته، أو أنه أثبت أن الإيمان بالغيب خرافة، على حد زعمهم. **فلنتساءل:**

هل العلم، أو المنهج العلمي الحديث، كما يسمونه، ينفي الإيمان بالغيب؟ وهل أثبت أو برهن على أن الإيمان بالغيب إيمان بالخرافة؟ وهل يملك العلم الوسيلة للإثبات أو النفي في ذلك؟ **لنرى:**

* **إن العلم الحديث**[1]، لم يبحث عن الغيب ولا يملك أي وسيلة لذلك، ولم يقحم نفسه في هذه الأمور، بل إنه لم يحاول الاستدلال على صحة الغيب أو وجوده، فالعلم الذي يعنونه، وهو العلم المادي الحسي، إنما أعطى الناس مناهج للبحث والابتكار المادي ولا شأن له بالدين والغيب إلا التأييد، **فلماذا** يبهتون العلم ويفترون عليه، ويعلنون باسمه إلحادهم وتشكيكهم وخوضهم الباطل.

* **وإن العلم الحديث**، الذي يقدسونه إنما هو علم تجريب، ومشاهدة واستنتاج، واستقراء مادي حسي، لا يملك أي طريقة أو وسيلة صحيحة وسليمة يحكم بها

(١) راجع الكتب التالية:

(١) تهافت العلمانية، للدكتور/ عماد الدين خليل ص٢٠ إلى ٣٠.

(٢) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، تعريب ظفر الإسلام خان ص٤٥ إلى ٥٢.

(٣) الله، للعقاد ص٣٠٠ ـ ٣٠٨

(٤) عقائد المفكرين للعقاد أيضًا ص٥٤ ـ ٦٦.

(٥) الإنسان ذلك المجهول، الكسس كاريل ص١٥ ـ ٢٤.

(٦) نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي ص١٢١ ـ ١٧٦.

(٧) في ظلال القرآن، لسيد قطب ـ المجلد الأول ص٣٩ ـ ٤٠.

في أمر الغيب، أو الاستدلال على حقيقته وإدراكه. ومن لا يملك الدليل على الإثبات فهو أعجز من أن يملك الدليل على النفي.

فلا يستدل على الغيب بالمعمل، أو بالمجهر، أو بالآثار والكشوفات والاكتشافات العلمية، المادية، أو الاستقراء العقلي المجرَّد، فالعقل لا يستطيع قولاً (نفيًا ولا إثباتًا) في الإيمان بالغيب دون هدىً من الوحي، وإن عرف الخالق وسائر المسميات الكبرىٰ بالضرورة، فإنه لن يعرف تفاصيل ما أخبر عنه الخالق من أمور غيبية أخرىٰ، وإن العلم الحديث لا يملك أي وسيلة علمية منهجية للإيمان بالغيب، فلماذا يحتجون علىٰ المؤمنين بأن العلم الحديث ينفي الإيمان بالغيب أو يناقضه؟! مع أن الأمر ليس كذلك.

* **وإن كان العلم الحديث** يجهل أمور الغيب، فجهله لها لا يكون دليلاً علىٰ عدم وجودها، إن هناك قاعدة مسلمة بين العلماء تقول: «الجهل بالشيء لا يلزم منه عدم وجوده». وهذه قاعدة بديهية عقلية، فإذا كانت العقلية الغربية تجهل الغيب، ولا تؤمن به، فلا يعني جهلها هذا أن الغيب خرافة، لا وجود له في حقيقة الأمر.

* **فإذا كان العلم الحديث**، أو ما يسمونه بالمنهج العلمي لم ينفِ علم الغيب، ولا يستطيع نفيه، ولا يملك الوسيلة العلمية لهذا النفي، بل هو إلىٰ إثبات الغيب أقرب، فلماذا يرفع هؤلاء الببغاوات بين المسلمين عقائرهم، زاعمين بأن العلم الحديث هو سندهم في النفي والإنكار، أو التشكيك والتأويل، في أمور الغيب التي وردت عن الله ورسوله؟ وإذا كان الله أخبرنا أنه لن يطلعنا علىٰ الغيب، إلا من ارتضىٰ من رسول، **فلماذا يلتمس هؤلاء ـ وهم يزعمون أنهم مسلمون ـ علم الغيب عند الكافرين نفيًا وإثباتًا؟** إن هذا لهو الجهل بعينه.

* **وإذا كان العلم الحديث ـ** الذي يعبدونه من دون الله ـ يعترف علىٰ ألسنة جهابذة علمائه، ورواده في العالم كله، أنه رغم ما وصل إليه من كشوفات واختراعات ووسائل علمية هائلة، فإنه لا يزال يجهل حقائق كثير من الموجودات

التي تخضع للتجارب والمشاهدة في المعامل، وأمام المجاهر، وبين الأجهزة المتقدمة، فقد اكتشف الإنسان الطاقة الكهربائية، ولم يعرف كنهها بعد، وآمن بالجاذبية كحقيقة علمية، ولم يعرف كنهها، إنما عرف آثارها فحسب، وفجر الذرة واستخدمها كطاقة ولم يشاهدها بعد، إنما شاهد آثارها فقط. وأشياء أخرىٰ كثيرة من هذا العالم المادي المحسوس، لا تزال يجهلها الإنسان، رغم تقدم الوسائل، أفيسعه ويسع الببغاوات باسمه إنكار الغيب أو تأويله؟ إن العلم نفسه يجيب: لا. كما بينت.

* **وإذا كان هذا الإنسان** الذي تقدم في العلم، واستخدم أرقىٰ الوسائل العلمية، لا يزال يجهل أشياء كثيرة في نفسه، وفي عالمه، وفي جسمه الصغير المحدود، الخاضع للتجربة والمشاهدة، والسبر والاستقراء والاستنتاج، فلا تزال في الإنسان قوىٰ وطاقات وأحوال نفسية وعقلية وعاطفية ووجدانية وعضوية، يجهلها كل الجهل رغم المحاولة الجادة لفهمها، فالعقل وعملياته العقلية والفكرية، والنفس والتواءاتها، وخلجاتها، والروح وطاقاتها، كل هذه الأشياء وغيرها في ذات الإنسان وكيانه، لا تزال في عالم المجهول بالنسبة له. يقول الكسس كاريل في كتابه: «الإنسان ذلك المجهول»:

«وفي الحق لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه، ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأماكن، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا. . إننا لا نفهم الإنسان ككل. . إننا نعرفه علىٰ أنه مكون من أجزاء مختلفة وحتىٰ هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة»[1]. . ثم يقول:

«وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها علىٰ أنفسهم

(١) الإنسان ذلك المجهول ـ تأليف الكسس كاريل ـ تعريب شفيق أسعد فريد ص١٧ ط ١٩٧٤م.

أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب؛ لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة»[1]..

هذا إقرار من عالم من أشهر علماء الغرب في القرن العشرين، ويوافقه الكثير من علماء الغرب ـ كما هو معلوم ـ على الاعتراف بأن العلم ـ رغم تقدمه الهائل ـ فلا يزال يجهل أشياء كثيرة جداً في حياة الإنسان والأرض والأحياء والجماد من حوله وأنه كلما تقدم في العلم زادت نسبة المجهول إليه، أي كلما اكتشف شيئًا عرف أنه يجهل أسرار أشياء أخرىٰ لم تكن في حسبانه من قبل ولم تخطر له علىٰ بال.

إذا كانت هذه حال الإنسان، وجهله بنفسه وبالأشياء القريبة حوله، فكيف بعلم الغيب؟ بل لماذا يتمسك رواد العقلية الحديثة من المعجبين بالغرب، بعلم لا يتعدىٰ المحسوسات، ولم يعرف أسرار الإنسان نفسه، فيحكِّمونه في علم الغيب الذي ورد عن الله تعالىٰ، خالق الإنسان والقائل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [٨٥: الإسراء].

فيزعزعون عقيدة المسلمين، فهذا ينكر قصص القرآن، والآخر ينكر معجزات الرسول ﷺ، وثالث يدعي أن علوم الغيب تمثيلية لا حقيقة لها، وآخر يسخر من أشراط الساعة، وآخر يسخر من آيات القدر وأحاديث القدر، وهكذا..

كل ذلك باسم العلم والمنهج العلمي، والمسايرة والمعاصرة، معاصرة الإنسان التائه في الغرب، ذلك الإنسان الذي لم يعرف حقيقةَ نفسه وسِرَّ خَلْقِهِ، وَحَقَّ ربِّه، فعاش الشقاء والقلق والحيرة، ثم الضياع والانتحار، ثم جهنم، وبئس القرار.

إنني هنا أناقش المسلم أو الذي يدعي الإسلام والذي لديه بقية من إيمان بالله

(١) المصدر السابق ص١٧.

ورسوله، وكتابه، لكنه ضعف إيمانه، فاختلط عليه الحق بالباطل، وبهره بهرجة التقدم المادي الخادع، فصار لا يفكر ولا يسمع ولا يبصر إلا من خلاله، فأفسد على المسلمين دينهم باسم الإصلاح، **فَضَلَّ وأضَلَّ**، وهو يحسب أنه من المهتدين.

* **والعلم الحديث نفسه** يقود الإنسان الجاحد إلى الإيمان بالغيب، فلقد اضطر كثير من الملحدين في العالم إلى الإذعان للعلم وحقائقه التي قادتهم راغمين إلى الاعتقاد بوجود خالق مدبر عظيم لهذا الكون، فكيف بالمؤمن؟ أقول ذلك لأن العقلانيين يؤمنون بالله، ويدَّعون ذلك.

إن نسبة الملحدين بين العلماء في الغرب أقل منها بكثير بين أنصاف المثقفين بين المسلمين[١]، بل إن جميع العلماء والباحثين، يعترفون بأن القرن العشرين يمتاز عن القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبله بأنه ـ رغم التقدم المادي الهائل ـ يعتبر عصر الإيمان، والشك في الإلحاد، في حين أن القرن التاسع عشر كان بالنسبة للغرب عصر الشك في الغيب وفي الإيمان[٢].

ويقول العلماء الغربيون بأن البحوث العلمية اليوم، تزيد الإنسان تقربًا إلى الإيمان بالله، وبالغيب المجهول والدين[٣]، فلماذا يبقى رواد العقلية الحديثة ـ عندنا ـ رجعيون يفكرون بعقلية القرن التاسع عشر؟ ألا يخجلون من أساتذتهم الغربيين ومن العلم الذي يقدسونه؟

فإنهم كذبوا وشككوا، وأولوا في مسائل الإيمان بالغيب، الذي هو شرط دينهم، خجلاً من المنهج العلمي، وأصحابه في الغرب، فلم يلحقوا بركب

(١) راجع عقائد المفكرين للعقاد ص٩٩ إلى ١٢٢.

(٢) راجع (الله) للعقاد ص٢٣ من المجلد الأول من موسوعة العقاد الإسلامية، وراجع أيضًا عقائد المفكرين للمؤلف نفسه ص٩٦.

(٣) نفس المرجع السابق.

العلم وأصحابه، الذين أصبحوا يشكون في الإلحاد نفسه، وهذا أمر معيب علمياً.

وأخيراً نقول لرواد المدرسة العقلية الحديثة بعد هذا النقاش، لنخاطب وجدانهم، وفطرتهم، بعد أن خاطبنا عقولهم:

إذا كانوا يؤمنون بالله تعالى ورسوله ﷺ، وبالقرآن الكريم، ولا يرضى أحد منهم أن يتهم بإسلامه، فلماذا لا يثقون بالله، ويؤمنون به، ويُسَلِّمون له ولرسوله ﷺ، ويؤمنون بما جاء عن الله تعالى وصح عن رسول الله ﷺ من أمور الغيب؟ وقد أخبرهم الله أنه لا أحد في البشر يستطيع الاطلاع على الغيب، وهم يعلمون أن الله هو عالم الغيب والشهادة، ثم هم يعلمون ـ أو يجب أن يعلموا ـ أن الشك والتأويل دون دليل في أمور الغيب التي أخبر بها الله ورسوله، خلل ونقص في العقيدة، قد يخرج المسلم من الإسلام.

يقول سيد قطب رحمه الله: «والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه الحواس إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس، وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير، كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه حقيقة أكبر من الكون هي التي يصدر عنها واستمد منه وجوده، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له وما لم توهب القدرة للإحاطة به، وما لا يجدي شيئًا أن نتفق فيه. . إن الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان، وهبها ليقوم بالخلافة في الأرض فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة تنظر فيها وتتعمقها وتتقصاها وتعمل وتنتج، وتنمّي هذه الحياة وتجعلها، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بالوجود كله، وخالق الوجود، على أن تدع للمجهول حصته في الغيب الذي لا يحيط به العقل، فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة، وترك حصة للغيب لا ترتادها العقول. . فأما هذه فهي محاولة فاشلة أولاً، ومحاولة عابثة أخيرًا، فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال، وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال، ومتى سَلَّم العقل بالبديهة الأولى وهي أن المحدود لا يدرك المطلق لزمه ـ احترامًا لمنطقه ذاته ـ أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل، وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون، وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة، وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين»[1]. .

وعلى هذا، فلو كان الغيب في متناول الإنسان، وأنه بإمكانه الاطلاع عليه، لما امتدح الله المؤمنين بالإيمان به، ولو كان للعلم ووسائله قدرة على البت في الغيب نفيًا وإثباتًا، لما سمي غيبًا، ولما كان للإيمان به فضل وميزة للمؤمنين. والله سبحانه أعلم.

*****

(١) في ظلال القرآن ـ المجلد الأول ص٣٩ ـ ٤٠ الطبعة الخامسة الشرعية.

المبحث الثالث

مزاعمهم في توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات

١ ـ توحيد الربوبية:

إن الإقرار والاعتقاد بأن الله تعالىٰ هو الرب الخالق الرازق المدبر المشرع الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، من الأمور الضرورية المركوزة في فطرة كل إنسان، والتي تدركها كل بديهة وهذا هو توحيد الربوبية، فهو شيء غريزي يشترك فيه الإنسان والحيوان وسائر المخلوقات.

فالعقلية الحديثة، تقر بهذا المبدأ.. مبدأ الإيمان بأن الله هو الخالق، وهو رب العالمين.. لكنها تخل بهذا الإقرار حين تقف عند هذا الحد، فلا تلتزم بلوازمه الاعتقادية ولا العملية، لا سيما في موقفها من حكم الإسلام وشرائعه وأحكامه، فإن أكثر الاتجاهات العقلانية تقرر كليًا أو جزئيًا بأخذ التشريع والنظم والأحكام عن غير ما شرعه الله، وهذا خلل في توحيد الربوبية، أدىٰ إلىٰ الخلل بتوحيد الالهية، كما سيأتي بيانه في توحيد الإلهية.

وذلك: أن الإقرار بالربوبية يستلزم الطاعة والامتثال والتسليم لله، ما دام هو الخالق الرازق المدبر المشرع رب العالمين... فالطاعة والامتثال والتسليم لا تلتزمها العقلية الحديثة كما يحب ربنا ويرضىٰ.

هذا يعد نقصًا في التوحيد؛ لأن الله تعالىٰ عدَّ إبليس عاصيًا، وغضب عليه ولعنه وطرده من رحمته، مع أنه يقر بالربوبية وأن الله هو الخالق الرازق.. لكنه حين أمره الله بالسجود، وقف إزاء أمر الله عاصيًا، فاستحق غضب الله، ولعنته، وصار من الكافرين.

كما أن المشركين الذين ورد ذكرهم في القرآن، كانوا يؤمنون بأن الله هو الرب الخالق الرازق، لكنهم لا يلتزمون بمقتضى توحيد الربوبية وهو التشريع والطاعة والامتثال واتباع أمر الله وشرعه.

قال تعالى عن أولئك المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [٦١: العنكبوت]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [٨٧: الزخرف].

فاعترافهم بأن الله هو الخالق المسخّر، لم يدخلهم في حظيرة الإيمان، بل إنهم مع هذا يعبدون مع الله آلهة أخرى ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [٣: الزمر].. فهم مشركون رغم إقرارهم بتوحيد الربوبية.

وهذا هو حال المدرسة العقلية الحديثة على وجه العموم، فهي تقر بتوحيد الربوبية نظرياً، لكنها تخل بمستلزماته، وما يستتبعه من عمل وامتثال لأمر الله وشرعه فتفصله عن توحيد الألوهية، التوحيد الأعظم، كما تخل أيضاً بتوحيد الأسماء والصفات.

٢ ـ توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية هو التوحيد المطلوب الذي جاءت به الرسل، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وقال سبحانه عن الأنبياء أنها قالوا لأممهم: ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وتوحيد الإلهية يتضمن توحيد الربوبية، فلا يتم توحيد الربوبية، إلا بتحقيقه.

فتوحيد الألوهية، هو توحيد الطاعة والامتثال لله، واتباع شرعه لأمره ونهيه وقضائه، واتباع رسله.

وأن الله تعالى هو وحده المستحق للعبادة، والخوف والرجاء.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [٢٣: الإسراء].

وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ

وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [٥ : البينة] .

والمدرسة العقلية الحديثة من أهم خصالها وسماتها، أنها تخل بتوحيد الألوهية، وتفرق بينه وبين توحيد الربوبية .

ففي الوقت الذي تقر فيه بوجود الخالق، وأنه هو الرب المحيي والمميت نجدها تتوقف في امتثال شرعه وأمره ونهيه، ولا تفي بحق الإيمان برسله وكتبه ووحيه وقَدَرِه .

ومظاهر النقص في توحيد الألوهية في المدرسة العقلية الحديثة كثيرة، أجملها فيما يلي :

١ ـ **أنهم ـ كأسلافهم** أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية ـ يحصرون التوحيد بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، أما توحيد العبادة الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه فلا يعرفونه، يقول شيخهم محمد عبده : «التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفاته، وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل . . . »[(١)] .

٢ ـ **التشكيك** في نسبة الوحي من الله لعباده المرسلين، ومحاولة نسبة الوحي والشرائع إلى الأنبياء أنفسهم، وهذا خلل في توحيد الألوهية . وكذلك الإخلال بمفهوم الوحي وكلام الله تعالى وتفسيره بما يُفهم أنه من نتاج البشر أو المخلوق .

٣ ـ **ادِّعاء** العقلانيين بأن القرآن والسنة (شريعة الله أو بعضها كالحدود والحجاب) لا تصلح للتطبيق في هذا العصر، وأن الدين لا صلة له بالدولة، والحياة، وما اتبعوه كذلك عملياً، من تعطيل الحدود، والتحاكم إلى الطاغوت (الأنظمة البشرية الوضعية) والحكم بغير ما أنزل الله في سائر شئون الحياة،

(١) رسالة التوحيد لمحمد عبده، ص١٧ .

وتفضيل ذلك كله على شريعة الله، فكل ذلك ونحوه خلل أساسي في توحيد الألوهية الذي هو أصل التوحيد من حيث إن الناس في هذا الأمر يعبدون غير الله في التشريع والطاعة[١].

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٤٤: المائدة] وفي الآية الثانية ﴿الظَّالِمُونَ﴾، والثالثة: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ [٤٥، ٤٧: المائدة].

وقال تعالى عن النصارى إنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [٣١: التوبة]. وذلك أنهم أطاعوهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام كما ورد عن رسول الله ﷺ في حديث عدي عندما جاء إلى الرسول ﷺ. إلى أن قال عدي «**فقلت: يا رسول الله، إنهم لم يعبدوهم، فقال: بَلَى، إنَّهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم**» الحديث[٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [١٢٣، ١٢٤: طه].

وذكر تعالى أن الإيمان لا يتم إلا بتحكيم الرسول ﷺ، وما شرعه الله، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [٦٥: النساء].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [٧: الحشر].

---

(١) مسألة الحكم والحاكمية والتشريع علاقتها بالتوحيد لها جانبان:
أحدهما: كونها تشريع، فإن المشرع هو الله تعالى، وهذا ألصق بالربوبية.
والآخر: كونها شرع من الله يجب على العباد اتباعه وطاعته والتعبد لله به، فهذا ألصق بالإلهية، والله أعلم.

(٢) رواه أحمد والترمذي، وذكره ابن كثير في تفسيره، راجع تفسير سورة التوبة، الآية ٣١ ص١٣٧ المجلد الثاني من مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ.

وقال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [٦٠: النساء].

٤ ـ ومن مظاهر الخلل في التوحيد لدىٰ العقلية الحديثة أيضًا: تقديم العقل علىٰ الشرع في أمور الدين، والغيب، وتحكيم الأهواء وآراء الرجال، والنظريات الظنية في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لذلك نجدهم ـ أي العقلانيين ـ لا يتورعون عن التلقي عن المستشرقين والمفكرين الغربيين، حتىٰ في قضايا العقيدة والأصول الإسلامية، التي لا يجوز للمسلم استمدادها إلا عن الله ورسوله، كمسائل الألوهية والإيمان بالغيب والرسل والوحي والآخرة والقدر والتشريع.

٥ ـ إعطاء الولاء والثقة، والحب والاحترام، والخشية والرجاء، لغير الله، والموالاة لغير عباده المتقين.

فالعقلية الحديثة توالي وتحب الكافرين، وتقدمهم، وقد تفضلهم أو بعضهم علىٰ أولياء الله وعلىٰ المسلمين، ومن ثم تستمد منهم أفكارها وتعطيهم ثقتها.. وأكبر دليل علىٰ ذلك: إكبارها للمستشرقين، وروّاد النظريات والمذاهب والاتجاهات الوثنية والمادية في الغرب والشرق، فتُمَجِّد هؤلاء وتعطيهم الحُبَّ والولاء والتقدير، رغم أنهم من أعداء الله، وأعداء دينه..

* أمثال:

هيجل، وديكارت، وكانت، وداروِن، وفرويد، وسارتر.. وغيرهم من أعلام الكفر، ثم هم يوالون أهل الأهواء والافتراق والبدع، والفسق والفجور، والإلحاد والعلمنة والحداثة والأفكار الهدامة، أكثر من ولائهم للعلماء والأئمة والصالحين من المسلمين، فيجلون الأولين ويعظمونهم ويمدحونهم ويشيدون بآرائهم ويدافعون عنهم، وبالمقابل يسخرون من الصالحين وأولياء الله المتقين غالبًا.

* وهذا خلل في توحيد الألوهية، وصرف للولاء والتعظيم لغير الله، فالحب في الله، والبغض في الله، هما لبّ الولاء لله وخلاصته، والإخلال بهذا المبدأ خلل في التوحيد.

قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [٢٢: المجادلة].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [١: الممتحنة].

٣ ـ توحيد الأسماء والصفات:

الأصل في توحيد الأسماء والصفات: أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ، نفيًا أو إثباتًا.

فكان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ ملتزمين بهذا المبدأ، فهم متفقون على إثبات ما أثبته الله لنفسه، ونفي ما نفاه الله عن نفسه، من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل[1]..

والمدرسة العقلية الحديثة، لا تلتزم هذه العقيدة، فقد خاضت في ذات الله تعالى وأسمائه وصفاته بغير علم، ولم تلتزم القاعدة الشرعية في إثباتهم ما لم يثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، ونفي ما أثبته الله لنفسه، كما وقعت في التكييف والتعطيل والتحريف لأسماء الله تعالى وصفاته بغير دليل. ثم نجد العقلانيين يلمزون أهل الاثبات أهل السنة والجماعة (السلف) بنفس الألقاب التي اطلقها عليهم أسلاف العقلانيين من المعتزلة والجهمية والأشاعرة والماتريدية حيث زعموا أن مذهب السلف يقتضي التشبيه والتجسيم وأن السلف مشبهة

(١) انظر الرسالة التدمرية لابن تيمية ص٧ طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٦هـ.

ومجسمة. كما فعل محمد عمارة[١]، ومحمد الغزالي السقا في كثير من كتبه[٢].

ويبدو لي أن من أكثر الكتاب العقلانيين المحدثين جرأة على الله تعالى، وخوضًا في حق الله وأسمائه وصفاته، **الدكتور مصطفى محمود**، وذلك لنزعته الصوفية المتطرفة، والكلامية الموروثة، وجهله بالكتاب والسنة، وأدلتهما، وهذه طائفة من أقواله وعباراته في ذات الله وصفاته:

يقول عن الله تعالى: «ولأنه منزَّه عن الزمان والمكان فهو لا يتحرك، ولا ينتقل، وإنما هو ساكن سكونًا مطلقًا»[٣] والله تعالى لا يجوز وصفه بمثل هذه الأوصاف المجملة المحتملة، لا سيما ونحن نعرف أن هذا هو منهج الجهمية والمعتزلة وأهل الكلام، الذين يقصدون بهذه المعاني ـ التي نفاها مصطفى محمود ـ نفي صفات الله وأفعاله، مثل العلو والفوقية والاستواء والنزول والمجيء ونحوها من الصفات التي ثبتت في الكتاب والسنة.

ويقول: «اللطيف هو الذي ليس له جسم أو ثقل أو كثافة تعوقه، ومن ثم فهو يتخلل كل شيء في حضور كامل مع كل شيء»[٤] وهذا كلام مبتدع يشعر بالحلول.

ويقول بأن الله «هو ذات الفاعل الواحد»[٥] وهذا تعبير فلسفي كلامي مبتدع.

ويقول: «والصمد هو الساكن سكونًا مطلقًا لا اضطراب فيه رغم احتوائه على الأضداد، لا حرب في داخله رغم احتوائه على النقائض، فهو السلام»[٦].

---

(١) ذكر هذا في مواضع كثيرة من كتابه: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية.

(٢) انظر كتابه: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص١٥٣.

(٣) (الله) لمصطفى محمود ص٩.

(٤) (الله) لمصطفى محمود ص٩.

(٥) المصدر السابق ص١٠.

(٦) المصدر السابق ص١١.

وهذا كسابقه وفيه خلط وتخليط.

ويقول بأن الله تعالى: «هو السميع بذاته، وهو البصير بدون بصر، وبدون عين وبدون أعصاب بصرية، هو البصير بذاته»[(١)]، وهذا نص مذهب المعتزلة.

«هو المتكلم بذاته يلقي إلينا بالمعاني فنسمعها على أي لغة يشاء»[(٢)]، وهذا مذهب فلسفي صوفي حلولي جهمي.

وأن الله تعالى «هو اللانهاية، والإطلاق في كل شيء»[(٣)]..

إن هذه الأسماء والصفات التي أطلقها مصطفى محمود على الله تعالى إنما هي خوض وإلحاد في أسماء الله تعالى، وقول على الله بغير علم وإساءة أدب مع الله.

لأنه حين يصف الله تعالى بأنه ساكن سكونًا مطلقًا، وأنه تعالى لا يتحرك ولا ينتقل، وليس له جسم، أو ثقل، أو كثافة، وأنه يتخلل كل شيء.

وأنه ذات الفاعل.

وأنه محتو على الأضداد والنقائض.

وأنه السميع بذاته، والبصير بذاته، وبدون أعصاب بصرية، ومتكلم بذاته، وأنه ـ تعالى ـ، اللانهاية والإطلاق.

إنه (حين فعل ذلك) يُعْتَبَرُ أساء الأدب مع الله تعالى: لأنه قال بما ليس له به علم، وأقحم عقله في أمر عظيم يستحيل عليه إدراكه.. قال تعالى عن نفسه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [١١٠: طه] فقد تطاول على ذات الله وأسمائه وصفاته بغير علم.

---

(١) (الله) لمصطفى محمود ص١٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) (الله) لمصطفى محمود ص١٤.

لأن هذه الأسماء والصفات التي ذكرها لم ترد عن الله في كتابه ولا في سنة رسوله ﷺ، كما أنها بألفاظها ومعانيها لا تليق بالله تعالىٰ . . لأنها أسماء وصفات مبنية علىٰ تصورات وثنية، أما ذات الله وأسماؤه وصفاته، فلا يمكن تصورها، فضلاً عن وصفها.

إن الإنسان لا يدرك كنه عقله وروحه، ولا يستطيع أن يصف هذه الروح - التي تشكل الجانب الحيوي من حياته - بصفات محددة، فكيف يطلق تلك الصفات علىٰ الله بغير علم؟ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [٨: الحج].

وإن مصطفىٰ محمود في هذا التعبير قد قال علىٰ الله بغير علم، وتلك خصلة من خصال أهل الشرك والجاهلية[١] . . ومن خطوات الشيطان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [١٦٨ - ١٦٩: البقرة].

ومن جانب آخر ينزع مصطفىٰ محمود إلىٰ الحلولية الملحدة حين يقول:

«حب الوطن وحب الفن وحب الجمال، وحب الحقيقة، كل هذه أقنعة وأسماء لحب الله، فالطفل يحب في أُمِّهِ أوصاف المعطي والوهاب والرزاق والحافظ والمغيث، والفنان يجسد ما تجسد صنعته من أسماء الخالق البارئ المصور والمفكر الفيلسوف يحب الأسماء الحق والعليم واللطيف والخبير والمحيط، وما نحب في النهاية كَامِنٌ فينا وبين أضلعنا، وأقرب إلينا من حبل الوريد دون أن ندري»[٢] . .

وتلك هي الحلوليّة الوثنية بعينها، ألا ترىٰ أنه يجعل حب الأم والوطن

(١) راجع مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبدالوهاب - بتعليق محمود شكري الألوسي ص١٥٠ ط٢.

(٢) السر الأعظم - لمصطفىٰ محمود ص٨٥.

أسماء لحب الله . . بل إنه يجعل أوصاف الأم والفنان والفيلسوف من أوصاف الله تعالىٰ فيقول : إن ما نحب كامن فينا وبين أضلعنا! تعالىٰ الله عما يقوله العقلانيون علوّاً كبيراً .

ويؤكد هذا الحلول حين يقول:

«وكلما عرفت الكون أكثر علمت أنه لا شيء إلا الله ، وما ترىٰ حولك إلا عموم التجلي ، وهنا يصبح الحق دليلاً علىٰ نفسه ودليلاً علىٰ غيره وما ثم غيره»[١] . .

وهكذا نجد العقلية الحديثة ـ ممثلة في مصطفىٰ محمود ـ حين لا تلتزم بكتاب الله وسنة رسوله تقع في تخريفات الصوفية ، وحلوليتها الوثنية ، مثل ألفاظه التي أطلقها «لا شيء إلا الله» ، و «ما ثم غيره» شنشنة الصوفية المتطرفة[٢] . .

وبمحض عقله القاصر يصف مصطفىٰ محمود (الله) بأنه ـ بزعمه ـ : «والحق تعالىٰ مريد غير مختار لأن أمره ليس فيه جواز وإنما أمره واحد»[٣] . .

كذا بهذه العقلية يحكم علىٰ الله تعالىٰ بأنه غير مختار ، دون أن يراجع كتاب الله ليعرف ماذا قال تعالىٰ عن نفسه ، حين قال تعالىٰ : ﴿ **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ** ﴾ [١٣ : طه] ، وقال : ﴿ **وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [٣٢ : الدخان] .

وقال : ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ** ﴾ [٦٨ : القصص] . .

فالله تعالىٰ يختار كما يليق بجلاله وعظمته ، ولا نقيس اختياره علىٰ اختيار المخلوق الناقص .

---

(١) السر الأعظم ـ لمصطفىٰ محمود ص١٩ .

(٢) راجع الرسالة التدمرية لابن تيمية ص١٣٧ ـ ١٣٨ طبعة جامعة الإمام ١٣٩٦هـ .

(٣) السر الأعظم ـ مصطفىٰ محمود ص٣٢ .

ويبرهن مصطفىٰ محمود علىٰ قصور العقلية البشرية حين يخوض في ذات الله بغير علم ولا هدىٰ حين يقول:

«المرأة شفعت الرجل بمثل ما شفعنا الله بمعيته»[١] . . «فالمرأة ترىٰ في الرجل رَبَّها كما نرىٰ نحن في الله ربنا وأصلنا. ألم يخلق الله حواء من آدم؟»[٢] . .

ونقول: **أولاً**: سبحان ربنا، هذا بهتان عظيم! فما ينبغي لجلال الله وعظمته وقدسيته أن يشفعنا بمثل ما شفعت المرأة الرجل. . تعالىٰ ربنا وتقدس عما يصفون. . لأن الشفع في الغالب يكون بين مخلوقين متماثلين أو متقابلين، وهذا أمر لا يليق بالله مع خلقه.

وثانيًا: أن معية الله لنا (ولله المثل الأعلىٰ) معية لائقة بجلاله وقدسيته سبحانه، فلايليق بجلال الله وعظمته أن تكون تلك المعية كمعية الرجل للمرأة، كما يزعم مصطفىٰ محمود وأمثاله، فالله تعالىٰ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [١١: الشورى]. والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [٧٤: النحل].

وثالثًا: معية الرجل للمرأة أو المرأة للرجل وشفعهما فيما بينهما أمر بشري مصلحي ومادي وعاطفي، محدود في حدود المصلحة البشرية المادية والشهوانية، والمعنوية العاطفية، والحاجة، ومحدودة في حدود الزمان والمكان والأحوال البشرية الضيقة، كالرحمة والمودة، والمصلحة المتبادلة بين الطرفين.

أما معية الله لعباده فلا يمكن ولا يجوز تكييفها وتشخيصها، وتشبيهها بأي حالة من حالات المعية المعروفة أو حتىٰ المتصورة؛ لأنه تعالىٰ يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [١٠٣: الأنعام].

. . فالمعية التي وردت في القرآن والسنة في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ

(١) السر الأعظم لمصطفىٰ محمود ص٢٧.

(٢) نفس المرجع السابق.

أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [٤: الحديد] . . معية خاصة فريدة تليق بالله تعالىٰ، ولا تشبه المعية[١] . . والتشافع بين المخلوقات، ولا يعلم كيفيتها إلا الله سبحانه. والخوض في أسماء الله وصفاته بغير علم خصلة من أقبح خصال العقلية الحديثة، كما أنها صفة عامة في سائر روادها . . وإليك نبذة من عباراتهم التي أطلقوها علىٰ الله تعالىٰ وهي لا تليق به، فالمجال لا يتسع للتفصيل:

من العبارات التي أطلقوها على الله: قولهم:

إن الله هو «العقل العام هو الله»، وأنه «مجموع عقول الكون صغيرها وكبيرها»[٢] . .

أو «أن الله يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها»[٣] . . وأنه «العقل الفعال»[٤] . .

وكقولهم: «الإسلام يؤله العمل لأن الله ذاته عمل في خلق السموات والأرض»[٥] . .

وكقولهم: «الله وراء المادة»[٦] . . أو «الله مادة له»[٧] . .

أو أنه «حقيقة مطلقة»[٨] . . وصف الله تعالىٰ بـ «الوجود الكلي»[٩] . . «والعلة

(١) راجع معنىٰ المعية في كتب السلف، مثل مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ـ المجلد الثاني ص٢٧٦، والمجلد الثالث ص١٣٦ـ ١٤٢ ـ ١٤٣، والمجلد الخامس ص١٠٣، ١٠٤، ٤٩٥ ـ ٤٩٨.

(٢) أطلق هذه العبارات علىٰ الله تعالىٰ: عبدالجبار الوائلي في كتابه «وحدة الوجود العقلية» في صفحات عديدة منها ص١٢٢، ١٥٦، ١٧٠، ١٧٧، وغيرها.

(٣) المصدر السابق ص١٥٦.

(٤) أطلقها حسن صعب في (الإسلام وتحديات العصر) ص٦٢.

(٥) قال هذه العبارة أيضًا حسن صعب ـ المصدر السابق، ص٤٥.

(٦) قالها أحمد أمين في (فجر الإسلام) ص٧٤، ٧٥.

(٧) نفس المرجع السابق.

(٨) قالها مالك بن نبي في (الظاهرة القرآنية) ص٩٢.

(٩) أطلقها سيد أمير علي في (روح الإسلام) ص١٩١.

الأولى»[١] .

«والسبب الأول»[٢] . . «والإرادة الكلية»[٣] . . «أنه هو أصل المكونات»[٤] . .

«والمحيط الأعظم الذي تخرج منه الحياة جميعها ثم تصب فيه»[٥] . .

«وأنه تعالى هو الأثير»[٦] . . وأن وحدانية الله تشمل «الوحدة في الوجود»[٧] . . «والوحدة في التركيب»[٨] .

ومثله قول خالد محمد خالد عن الله تعالى : (. . . إن ذراعية مفتوحتان . . .)[٩] إلخ .

ونحو ذلك من العبارات والأسماء والصفات المبتدعة التي تطلقها العقلية الحديثة على الله تعالى ، وبعضها مستمد من العقلانيين القدامى كالفلاسفة وغلاة الصوفية ، وأتباع الديانات والنحل الضالة ، وبعضها في نسج خيالاتهم الفاسدة .

كما أنها في ذلك متأثرة بالثقافة والتصورات الغربية للإله والرب التي

---

(١) أطلقها سيد أمير علي في (روح الإسلام) ص١٩١ .

(٢) قالها حسن صعب (في الإسلام وتحديات العصر) ص٦٢ .

(٣) سيد أمير علي (روح الإسلام) ص٢٩ .

(٤) قالها محمد عبدالله دراز في كتابه (الدين) ص٩٠ الهامش .

(٥) قالها أبو شادي في كتابه (ثورة الإسلام) ص١٨ .

(٦) نسبها الشيخ مصطفى صبري إلى الشاعر العراقي أمجد الزهاوي ص١٢١ . ، جـ١ موقف العقل (الهامش) .

(٧) قالهما أحمد شلبي في كتابه : مقارنة الأديان (الإسلام) ص٩٨ .

(٨) المرجع السابق .

(٩) إنسانيات محمد ، لخالد محمد خالد ص٣٣ ، وما أدري ماذا سيقوله العقلانيون عن مثل هذا الكلام من صاحبهم ـ إذا كانوا وصفوا السلف بالمجسمة حينما أثبتوا لله تعالى اليدين كما وصف نفسه سبحانه ـ فكيف بهذا الآثم الذي أطلق (الذراعين) كذبًا وافتراءً؟ تعالى الله عما يقوله الظالمون علوا كبيرًا .

انحرفت تصوراتها عن الله تعالىٰ. وهي تصورات إما إلحادية خالصة، أو وثنية قاصرة لا تليق بجلال الله وعظمته.

وإليك أخي القارئ بيان شيء من ذلك:

١ ـ أن عقيدة المسلمين التي عليها سلف الأمة وأئمتها، والتي وردت في القرآن والسنة، أن الأصل في باب الأسماء والصفات.. أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله الكرام، نفيًا وإثباتًا: فيثبتون ما أثبته الله لنفسه، وينفون ما نفاه الله عن نفسه، من غير زيادة ولا نقص، ولا تكييف ولا تمثيل، ولا تعطيل، ولا تأويل[١]..

* وأنه لا طريق لمعرفة هذا إلا بكتاب الله وصحيح السنة[٢].. وأن إثبات الصفات مفصّل فيهما، وأنه تعالىٰ ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله[٣]، وهو تعالىٰ المتصف بالكمال المطلق، المنزه عن جميع النقائص.

٢ ـ وأن الله تعالىٰ نهىٰ عن القول عليه بغير علم، فقال: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾ إلىٰ قوله: ﴿**وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [٣٣: الأعراف].

* وأخيراً أنه تعالىٰ لا يحاط به ولا تدركه الأبصار، فقال تعالىٰ: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ [١١٠: طه].

وقال أيضًا: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ [١٠٣: الأنعام].

ونهىٰ عن أن يتدخل الإنسان في شيء لا يعلمه، فقال تعالىٰ: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [٣٦: الإسراء].

---

(١) راجع في ذلك:

أ ـ الرسالة التدمرية لابن تيمية ص٧، ٨.

ب ـ وشرح العقيدة الطحاوية ص١٦١، ١٦٢.

(٢) راجع الرسالة التدمرية لابن تيمية ص٧ ـ ١٠.

(٣) راجع شرح الطحاوية ص٣٨.

ومن الضروري أن الإنسان ما دام لا يعرف حقيقة أكثر المخلوقات والعوالم من حوله. إذًا؛ فهو بحقائق صفات الخالق أجهل، وهناك مقولة جيدة معناها: «أنه محال على من يفنى أن يدرك ما لا يفنى».. وهذا ما تدل عليه نصوص الشرع.

٣ ـ وعلى هذا: فإن تلك العبارات التي أوردتها عن بعض العقلانيين والتي أطلقوها على الله تعالى، كلها لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ، إنما جاءت من توهماتهم وخيالاتهم، وتحريفاتهم وتخرصاتهم.

وكلها إثم وبهتان على الله تعالى، وانتهاك لقدسيته وجلاله، وجهل بحقه، وأمره ونهيه.

* فهي تَنمّ عن جهل مطبق بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعقيدة المسلمين والسلف الصالح، وجهل بأصول الدين وضروراته، والجهل بأصول الدين لا يعذر به الباحث والمفكر الذي يدعى أنه مسلم.

* وهكذا نجد أن العقلية الحديثة كالقديمة لا تلتزم المصطلحات الشرعية في غالب تعبيراتها وآرائها ودراساتها، فإذا كانت لا تلتزم النصوص الشرعية في أسماء الله وصفاته، فهي فيما عداها من أصول العقيدة أبعد وأضل.

* كما أن تلك العبارات أو الأسماء والصفات التي ورد ذكرها، والتي عبر بها بعض الكتاب المحدثين عن الله تعالى، إما صفات سلبية عدمية لا وجود لها.. مثل:

قولهم: «حقيقة مطلقة».

* أو صفات نقص كقولهم: «لا يعقل ما دون ذاته» و «إله وراء المادة».

وهكذا سائر تلك الصفات.

* ويكفي أنها لم ترد عن الله تعالى، علام الغيوب، وأن الإنسان يستحيل عليه أن يعرف من أسماء الله وصفاته غير ما ورد عن الله ورسوله.

* فالكلام في غير ما ورد في الوحي عبث ووهم، وقول على الله بغير علم.